الحديقة النباتية في مدرسة الطبّ الفرنسويّة

للشاب الاديب اسعد افندي ملحمه احد المتخرّجين في مكتبنا الطبيّ

ليس بين العلوم الطبيعيّة التي ينصبُّ الطلبة والباحثون على درسها علم اوسع نطاقاً وادقّ مسائل واغزر منافع واجلب للسلوى من علم النبات فانّ فيهِ ما يبهج الابصار ويفكّه الارواح ويجدي الافادة واللذّة معاً . ولا تخال الجسم الّا منشرحاً اذا ما كانت النفس مستغرقة بين الاعشاب واشكال النباتات والازهار . فكم من دارس سئم الكتاب وملّ اليراع وضاقت نفسهُ عن الاستزادة في الدرس والتنقيب عدل الى روضتهِ النباتيّة وسرّى عن قلبهِ وجدّد نشاطهُ وهمّتهُ في مواصلة احراز العلوم . وكم من فيلسوف قضى الساعات وابصارهُ تستوعي زهرةً جميلة او نباتاً غريباً يرى فيهما من غوامض الاسرار ما لا يستجليهِ غير المدقّق الممحّص ويرقى بعد تأمّلهِ فيهما الى تلك الحكمة السامية التي زيّنتهما بذاك الجمال الرائع الآخذ بمجامع الصدور

على انّ الدارس والفيلسوف يكتفيان غالباً بما يجدانهِ من مواليد الطبيعة على مقربةٍ منهما امّا النباتيّون والحشائشيّون فانهم لولوعهم بضروب النبات واشكالهِ لا يخافون ان يتجشّموا الاتعاب ويباشروا الاسفار البعيدة ليجمعوا ما لم تصل اليهِ يدهم عن كثب فتارةً يتوغّلون الجبال وتارةً يستبطنون الاودية فلا يدعون بقعةً الّا نقّبوا في زواياها ولا غوراً الّا تتبّعوا كل جوانبهِ فاذا رأوا نباتاً جديداً لم يعرفوهُ او شكلاً كانوا يرغبون الى الوقوف عليهِ فرحوا باكتشافهم لتلك الضالّة وسمّوا النظر بمعاينتها ثمّ تسارعوا فاحرزوها في صندوقة حشائشهم بكل حرص

وليست هذه النباتات دائماً من الاصناف الكبيرة الزاهية بل ربّما كانت حقيرة دقيقة ولعلّها فطورٌ لا تُرى الّا بالمجهر فنظرُ النباتيّ يجد فيها من الخصائص ما لا يجدهُ نظر الامّي فتدلّهُ عدسيّتهُ على عجائب تخلب عقلهُ وتسحرُ لبّهُ فينتقل من دهشة الى دهشة حتى اذا ما رأى الله كاملاً في تلك الاجسام الناعمة ردّد لعجبهِ صوت ذاك الفيلسوف الجليل والمعلّم الكبير القديس اوغسطينوس حيث يقول : انّ الله لعظيمٌ في الاشياء الكبيرة وهو اعظمُ منهُ في الصغيرة

ثم يعود بعد التعب والنصب الى داره كأنّ صندوقته أودعت مال قارون او كنوز معادن الترنسفال فينظّم تلك النباتات ويرتّبها على حسب اصولها وفروعها واجناسها وانواعها. حتى اذا تمّ تدوينها ترقّب الفرصة للتجوّل في ناحية اخرى ليواصل عمله من جمع اشكال غيرها وهكذا لا يزال بين ذهاب وايابٍ الى ما شاء الله لانّ العمر ينتهي قبل ان يتمّ العمل لوفرة مواليد الطبيعة النباتيّة التي لا يزال كثيرٌ منها مجهولًا حتى في كلّ بادٍ من البلاد

*

على انّ كثيرين من ارباب النبات لا يسعهم التجوال في الامكنة البعيدة والتسنّم الى مشارف الجبال فيتمنّون لو قام رجل حازم يدني اليهم ضروب النبات ويمكّنهم من درسها على مقربةٍ منهم فيستعيروا النفس بجليل فوائدها دون مشاقّ التفتيش

فاجابةً الى هذا المرغوب ترى حكومات البلاد المتمدّنة تهتمّ بغرس منابت واسعة يجمع فيها الاختصاصيّون ما يتيسّر لهم من الاعشاب واشكال الحشائش والنباتات تسهيلًا لدرس العلماء وطلّبة علم النبات ويستنبتون الاغراس الاجنبيّة التي يستحضرونها من الخارج

ولم تكن بلادنا السوريّة لتحرم مثل هذا العمل الجليل الشان بفضل وهمّة رجال علم كبار انشأوا في هذه الديار حديقةً نباتيّة هي حديقة المكتب الطبيّ الافرنسيّ في بيروت التي يتولّى تدبيرها حضرات الآباء اليسوعيين وعليها مدار رحى كلامنا في هذه النبذة فنقول :

يرتقي عهد غرس هذه الحديقة الى عام ١٨٩٢ في الجنينة اللاحقة بكليّة القديس يوسف وما هي الّا ثمان حجج خلت منذ نُقلت الى الارض المخصّصة بتشييد المكتب الطبي الافرنسي الجديد وها هي اليوم اضحت روضةً غنّاء تطوّق تلك البناية الحديثة التامّة الهندسة المتقنة البناء يطلّ عليها عابر طريق الشام من بعيد ويرى من وراء السور سقوفها الرماديّة فلا يتمالك اذا مرّ بجانبها من ان يحسّ بعاطفة الشوق تدفعه فيدخل ليتفقّد هناك عمارتين من الحجر الرملي مشيدتين الى يمين الداخل ترتكزان على اعمدة منحوتة الحجارة ثمّ عمارةً كبيرة الى يساره قواعدها متينة ذات قناطر مهيبة الشكل فخيمة تنتهي في جانبها ببنايتين متوازيتين

والحديقةُ الى جنب هذا القصر الباذخ فاذا اجلتَ الطرفَ فيها وقع على فسحة من الارض مائجة اخضرارًا تشوق النفسَ بأزاهير مختلفة الالوان تشكلها فتزيدها جمالًا وبهاء كانها السماء في كبدها النجوم تتلألأ . فيها من الاشجار ما يضارع سقوف الدور علوًّا يبلغ البعض منها الخمس عشرة ذراعًا والبعض يتعدى العشرين ألِفتها طير السماء فاصطنع العصفور بين اوراقها عشَّهُ واتخذ الهندليب اغصانها منبرًا يتغنّى عليهِ تغريدًا فترقص لهُ افنانُها طربًا واذا مرَّ بها النسيم تصطفق لهُ اوراقُها تأهيلًا وترحيبًا . وفي وسط الحديقة بركة ماء تنعكس على مرآتها قرون الغزالة وتتفجّر منها المياه بثقوب وتسري بقنوات تتشعَّب في جوانب الروضة فتسقي الاشجار الباسقة وتنساب بين تلك الاعشاب الخضراء فتحييها وتشيها . ويتصاعد من وسط البركة باقات من القصب الهندي ومن سوق البرديّ اللطيفة ومن اوراق اللينوفر فكأنَّ عرائس النيل استوطنت تلك البقعة من الارض فكستها باثوابها النضرة والوانها الزاهية

وان كانت هذه الحديقة كبيرةً تقرُّ بها العين ويُفرَّج بها القلب لحاسنها فانَّها اكبر واهمّ من حيث فائدتها لأنَّ معظم تلك النباتات والاعشاب هي من موادّ الصيدلة فتدخل في تركيب الادوية التي ينتفع بها جسم الانسان في علّاتهِ

والحديقة المذكورة ايضًا مدرسة عمليَّة لطالب هذا الفنّ فيدرسها درسًا متواصلًا ليتبيَّن خواصّ النباتات فيجتزّ من عصيرها او من اوراقها او اغصانها او زهورها تلك المفردات الطبيَّة التي جعل الله فيها شفاء للعالمين فيستمدّ هكذا من الطبيعة نفسها ترياقًا ليخفّف عن كاهل الانسانيَّة ما اثقلتهُ بهِ من الاعباء الثقيلة

وغنيٌّ عن القول انَّ النباتات التي يتخذ منها الصيدليّ موادّ ادويتهِ انَّما تتركَّب من اجهزة خاصَّة كالاصول والجذوع والاغصان والورق والزهر والثمر مرجعها الى خلايا اصليَّة سبق حضرة الاب طوران فوصفها في العدد السابق من المشرق (ص ١٦١—١٦٨) وافاض في بيان تركيبها وعملها ونموّها بامتصاصها من التربة ماء فيهِ بعض الاملاح التي تغتذي منها النباتات وبتحليلها للهواء بواسطة جهازها التلويني الاخضر المعروف بالكلوروفيل مع فعل اشعَّة الشمس فتتخذ منهُ كربونها الذي منهُ يتكوَّن معظم جرم النبات

على انّ النبات لا يقوم بهذه الاعمال الجليلة الّا اذا وُجد في احوال توافق كيانهُ . واذا نُقلت تلك الاغراس من مواطنها الى دار غربة أبت النموّ ما لم تجد في منابتها شروطاً شبيهة بموطنها الاصليّ من قبل التربة ومظاهر الجوّ كالحرارة ورطوبة الهواء او جفافهِ وغير ذلك ممّا لا غنى عنهُ لكل صنف من النبات فان استوفى النباتيّ تلك الشروط لقي جزاءهُ قريباً بما تنبتهُ الارض من نباتات البلاد السحيقة والاقاليم القاصية التي وجدت في غربتها وطناً جديداً وأنست بنباتاتٍ غيرها لم تعرفها في منبتها الاصليّ

فحديقة النبات التي اتّخذها الآباء اليسوعيّون لاستنبات الاشجار والنباتات المتنوعة والتي عوّلنا على وصفها مستوفية لتلك الشروط كما سترى

*

اعلم انّ هذه الحديقة تشغل فسحةً واسعة على شكل مربّع منحرف تبلغ مساحتهُ ١٢٠ متراً طولاً و٤٠ م عرضاً . وكانت ارضها سابقاً باثرة خطاء اهملتها الطبيعة ويد الانسان العامة ولدن أفاق ونشط لها الآباء اليسوعيّون جعلوها جنّة زاهية زاهرة بل خميلة طال فيها شجر الاوكليبتوس وبسق في الفضاء ومثلهُ النبق والسدر والجميّز

وقد عانى المتولّون لهذا العمل مشقّة اعظم في تبليد بعض الاغراس والاعشاب التي استحضروها من امصار بعيدة مختلفة المناطق حرًّا وبردًا وطولاً وعرضاً وارتفاعاً وهبوطاً ونشفاً ورطوبة لئلّا تتلف باقتلاعها من بلادها وغرسها في تربة لا توافقها او في احوال جوّية تقضي عليها بالبوار . وذلك ما عرفوهُ بالاختبار غير مرّة اذ فسدت نباتات كريمة كانوا استقدموها بكُلَف عظيمة من بلاد بعيدة لخلل وقع في استنباتها

ولحسن الطالع انّ هواء بيروت هو معادلٌ تقريباً لهواء كلّ شواطئ بحر الروم التي تنقسم سنتها بين فصلَين صيف فشتاء . فالصيف يمتدُّ من ايّار الى كانون الاوّل وتتفاوت فيهِ الحرارة التي تزيد وطأتُها في شهري تموز وآب . واذا افل هلال تشرين مدَّ الشتاء رواقهُ وطلع بدر كانون مطوّقاً بالغمام والسحاب المطر فيتدرّج القرُّ فيهِ تدريجاً ويشتدُّ في اواسط كانون الاوّل وطول كانون الثاني الّا انّ قرب البحر لا يُفسح بالتغيرات الفجائيّة التي تحدث في البلاد الداخليّة ومقياسُ الحرارة يتراوح

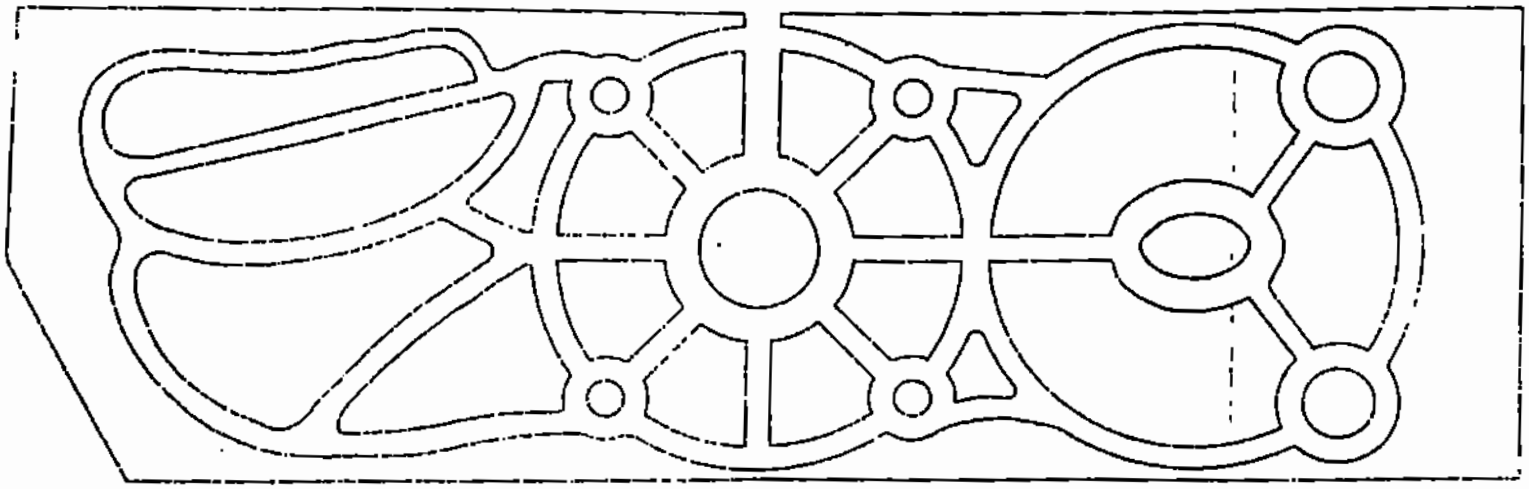

رسم الحديقة النباتيّة في المكتب الطبيّ الفرنساويّ

في بيروت والسواحل في فصل الصيف بين ٢٥° و٣٠° يكون اديم السماء صافياً والهواء لافحاً والرطوبة شديدة . ويهبط المقياس في الشتاء الى ٨° متراوحاً بينها وبين ١٣° ويندر فيها الجليد والصقيع . وفي هذه الاثناء ولا سيما في الكانونَين وشباط تتهاطل الامطار الغزيرة وتغوص جذور النبات بلا انقطاع في رطوبة دائمة وباردة وذلك من اعظم العوائق لتوطين النباتات المنقولة من البلاد الواقعة بين دائرتي الانقلاب

اما تربة الحديقة التي كلامنا عنها فانها تتركب من الرمل والطباشير ففي الطبقة العليا منها في سمك ١٥ سنتمترًا الى ٢٥ س تجد الرمل المنتشر الذي تذريه الرياح ولا يقرّ له قرار وهو من طبعه قاحل عقيم . وتحته طبقة اخرى تتركب من الرمل الاحمر الكثيف المتراصّ وهذه الطبقة مخصبة تنفذ فيها اصول النبات لكنها في الصيف تجفّ سريعاً بفعل الشمس الحامية فملافاةً لاضرارها لا بُدَّ من سقي التربة بالتواتر لتخصب وتمرع

واعلم انَّ كثيرًا من النباتات اذا لم تجد في بلادنا ما يوافقها من الهواء تذبل وتيبس فاستدراكاً لهذا الخطار واحتياطاً بكثير من النباتات العزيزة الوجود الغريبة الاصل اقاموا في هذه الحديقة بناء مزجّجاً يصحّ ان ندعوهُ بالمحضنة طبقاً لاسمه الفرنسويّ (les serres) الذي معناهُ صوان النبات . وهو عبارة عن بناء لطيف بجرز الحديد وصفائح الزجاج طولهُ عشرون مترًا في عرض اربعة امتار والمحضنة تقسم الى نصفَين النصف الواحد اشدّ حرارةً وهو يوافق بعض نبات البلاد الحارّة والنصف الآخر حرارتهُ معتدلة تلائم اشكالاً غيرها من النبات

فالغاية اذن من هذه المحاضن ان تقي بعض النباتات من البرد القارس فتجديها حرارةً اصطناعيَّة تكفيها لحياتها ونموّها وذلك بتساطل يجري فيها ماء مسخَّن . وهي على خلاف ذلك في وقت الصيف تصون غيرها من النباتات من وَقَدات الحرّ باعتدال هوائها

وزجاج هذه المحاضن ليس بزجاج عاديّ شفّاف بل هو زجاج خشيب غليظ تنفذ فيه اشعة الشمس ملطّفةً بحيث تُحجَز حرارتُها (rayons athermanes) ويُخفَّف نورها وعملها فتبقى حرارة المحضنة معتدلةً ابدًا

قلنا انّ المحضنة على قسمين فالقسم الذي لا يحتاج الّا الى حرارة متوسّطة تكفيه الحرارة الجوّية المحدقة بالمحضنة وتُجعَل فيه النباتات التي تتلف بالجليد كنباتات مستعمرة الكاب في جنوبي افريقية وبلاد لميركة الجنوبيّة واوستراليـة وجنوب الصين. فحرارة هذا القسم من المحضنة تتراوح في فصل الشتاء بين ٢٠ و ٢٦

امّا النصف الثاني من المحضنة حيث تشتدّ الحرارة فتصعد من ٣٠ الى ٣٥ ولا يجوز هبوطها دون ١٥ فهو مجهّز للنباتات الخاصّة بالاقاليم الحارّة كالنخل والنارجيل وضروب الخشار المشجّر

ومحضنة المكتب الطبيّ هي اليوم غنيّة بالاشجار والاعشاب التي تكسوها ثوباً قشيباً من الحسن على حداثة نشأتهـا الّا انّ كثيرًا من هذه النباتات الاجنبيّة لقرب عهد استنباتها لم تبلغ بعد تمامَ الباوغ او تُرى صغيرة دقيقة

وممّا يستوقف الابصار بـين هذه النباتات الاجنبيّة المنقولة الى حديقة النبات والمصونة في النصف الحارّ منها شجرة الكينا فانهـا مع صغرها تنمو نموًّا عجيباً على تباين تربتنا عن تربتها الاصليّة وموطنهـا الاوّل فان موطنها جبال اميركا المعروف بالكورديليار وضفاف نهري الامازون والاورينوك حيث تختلف احوال الجوّ. فتنتقل من الحرارة الى البرودة ومن الامطـار الى الغيوم دون ان يتجاوز ميزان حرارتها الدرجة ٢٠ او يهبط دون ١٢

وقد اتّسع اليوم نطاق زراعة هـذا الصنف فترى شجرتها ناميةً على اختلاف اجناسها في بلاد عديدة من آسية واوقيانية ولا سيما الهند الانكليزية وجزيرة جاوة لما وجد زارعوها في هذه الاقطار من صلاح التربة وموافقة الاحوال الجوّيّة ولتوفّر زراعتها قد هبطت اليوم اسعار الدواء المستخرج من قشرتها الذي يفضـل على سواهُ في علاج الحُمّى الدوريّة. واوّل من نبّه الى هذا الدواء الناجع الطبيب الجنوبيّ سبستيان بادوس (Seb. Bados) سنة ١٦٦٣ على انّ الفضل في تعريف منافعه ونشره في اوربّة يعود الى الآباء اليسوعيين الذين بثّوا في القرن السابع عشر عوائد الكينا ومنافعها لمعالجات الحُمّيات وقد عُرفت لذلك زمناً طويلاً في اوربّة باسم مسحوق اليسوعيين (Poudre des Jésuites) . والكينا شجيرةٌ رشيقة ذات اوراق بيضويّة الشكل وضلوع ضاربة الى الحمرة يكسوها شبه الخَمل الناعم

ولو حوّلت هناك نظرك من شجرة الكينا الى شُجَيْرة اخرى في جوارها لرأيت ما طالما التذذتَ بشروبه وجهلت صورة نباته اعني بها شجرة البنّ المدعوّة في عُرف العلماء بالقهوة العربيّة (coffea arabica) وهي تبسق في موطنها حتى تبلغ سبعة او ثمانية امتار طولًا وازهارُها بيضاء وعطرُهـا طيّب عبق ولها تاريخ جدير بالاعتبار الّا انّ الجهّال خلطوا فيه اي خلط فمنهم من لم يميّز البنّ عن الحشيشة ومنهم من زعم انّ للبنّ ذكرًا في التوراة وقال غيرهم انّ قدماء اليونان عرفوا القهوة. وممّا خُدع به بعض كتبة القرون الوسطى انّ اصل القهوة في العربيّة الخمر ثم أُطلق اسمها بعدئذٍ على مشروب البنّ فظنّوا انّ العرب عرفوا قديمًا قهوتنا هذه. والصحيح انّ العرب لم يذكروهـا قبل القرن السادس عشر كما اثبت الامر استاذنا الدكتور گيك في مقالته عن اصل القهوة سنة ١٩٠٣ (في المشرق ٦: ٦٨٥–٦٩٢ مع عدّة تصاوير) والرّجح انّ العجم سبقوا العرب في استعمال القهوة ثمّ اخذها اهل مصر عن العرب

ولشجرة البنّ حبوب بيضاء الشكل اذا حُمّصت تولّدت منها مادّة زيتيّة عطرة يدعونهـا كافيون (caféone) تطيّب شروب القهوة ولكن اذا زادوا في غليانها تطايرت المادّة المذكورة وفقدت القهوة لذّتهـا وطيبها وانحطّت. ومن منافع هذا المشروب انهُ ينبّه الاعصاب وينعش القوى الخامدة ويوقد الذهن ويزيل الكَرَى. لكنّ الافراط من استعمالها مضرّ فالمكثر من شرب القهوة يأنف الأرق ويصاب بطنين في الآذان ويسدرّ بصرهُ ويتعرّض للكابوس والرّجفان

والاطبّاء يستخرجون من القهوة مادّة أُخرى يدعونها كافئين (caféine) يقوّون بها ضعف القلب ويعدّلون وجيبهُ ونبضاته

ومن المشروبات الشائعة اليوم بمثابة القهوة الشاي. ومن نباته في حضانة المكتب الطبيّ نموذج حسن من شكلـه الاكثر شيوعًا المسمّى بالشاي الاخضر (thea viridis) وهو نبات ذو اوراق صغيرة جاسية متناوبة محدّدة الرأس. واذا حان وقتها ازهرت الزهور في اصول تلـك الاوراق ويكون زهرها اما مفردًا او متجمّعًا عنقوديًا في عدد ثلاثة او اربعة ازهار بيضاء او ضاربـة الى الصفرة رائحتها قليلة. وان جفّفوا اوراقها استعملوها كحبوب القهوة شرابًا لذيذًا يساعد على تنمية

حركة الدم في العروق ويفيد لتسهيل التنفس وتنبيه قوى الجسد والروح لانَّ في اوراق الشاي مادَّة منعشة كما في القهوة

واذا تقدَّمتَ بعض خطوات رأيت شجرة اخرى تبلغ في نموّها طول شجرة الشاه بلُّوط (الكستنا) ألا وهي شجرة الكولا (Kola acuminata) اصلها من بلاد افريقية الشرقيَّة يستعمل الاطبَّاء حبوبها المعروفة بجوز كولا التي خُصَّت كالقهوة والشاي بالعنصر المتري الذي مرَّ ذكرهُ وهو في الكولا اوفر منهُ فيهما . ولها مع ذلك تأثير عظيم في الجهاز العضلي لوجود قلويَّات في لونها الاحمر المعروف باحمر كولا . ويظهر انَّ الوطنيين في اواسط افريقية استعملوا الكولا شراباً لتوفير قواهم وعلى رأي الاطبَّاء المحدثين انَّ هذا المشروب افضل مما يوصف لردّ القوى المفقودة وقد بيَّن اختبارهم انهُ انجع دواء لاراحة الجسم بعد تعبهِ وان لم يتَّفقوا في تعليل الامر

وفي هذه المحضنة نيّف ومئة نبات من اجناس وفصائل مختلفة جامعة بين الفوائد العلميَّة والمنافع الطبيَّة فضلاً عن صحة جمالها . ومنها ما لا تُعرف لهُ فائدة علاجيَّة او علميَّة لكنَّهُ يزين المحضنة باشكالهِ البهيَّة كالفصيلة المدعوَّة بالمستعجلة (orchidées) فانَّ غرابة صورها ووفرة انواعها وزهو الوانها تستدعي الى العناية بها وتستلفت النظر اليها فيجد النباتي في استنباتها لذَّةً خاصَّة اذ منها ما يشبه النحلة بصورتهِ (ophrys apifera) ومنها ما هو اشبه بالعنكبوت (ophrys arachnites) . ولا حرمك الله ايها القارئ الكريم مرأى الشكل المعروف بالفانيلات العطرية (vanilla aromatica) الذي فيهِ صِنف يحتوي على عطر ذي اريج ذكيّ معدود من اطيب الاصناف العطريَّة

وهناك ايضاً ضروب النخل والخنشار التي تخلب النظر ببديع جمالها . فللاوَّل ساقٌ طويل مستقيم ذو عُقد وعليهِ ليفٌ كشعر الانسان وفي اعلاهُ اوراق ملساء او مطويَّة طيًّا رائعاً تظنُّها المراوح في انبساطها . اما الثاني فاوراقهُ المتفرّقة سنانيَّة الشكل عدَّدة الاطراف ومخرَّمة كأنَّ يد الطبيعة اهتمَّت بنسجها وتطريزها وتشكيل فُرَجها لتبهت نظرنا بمحاسن اعمالها

وفي وسط المحضنة حاجز يفصل بين القسم الحامي الهواء والجانب المعتدلهِ فان

شئت ان تنفذ الى هذا الاخير مررتَ بباب في صدر الحاجز ولوقتك تشعر بهبوط درجة الحرارة لانَّ هذا النصف خالٍ من اجهزة التدفئة وحرارتهُ المعتدلة تأتيه من اشعَّة الشمس وحدها وهي كافية لتصون النبات المودع فيها من انقلابات الهواء الخارجيَّة

وثمَّا هناك من الاشجار الجديرة بالذكر شجرة اصلها من الهند يدعونها بابايه (papayer) وفي لسان العلم (papaya vulgaris, carica papaya) وطولها اليوم متر تشبه في هيئتها النخل . ولها الاثمار الطيّبة الشبيهة بالبطيخ مع صغرها ولون هذا الثمر اصفر مع ميله الى الحمرة وفي باطنهِ لبابٌ يؤكل . ويستخرجون من هذا الثمر بالشدخ عصيرًا يتَّخذ كمهل

ومنها نوع من الخطميَّة يُدعى هِبِسكوس (Hibiscus albelmoschus) قد ازدهى في هذه السنة بزهرهِ البديع الاصفر الكبير الذي تفوح من حبوبه رائحة المسك والعطَّارون يتخذونهُ لتركيب نوع من العطر المُعنبر (ambrette)

وفي هذا القسم المعتدل الحرارة ٧٥ صنفاً من العناقير المستعمل اكثرها في الطبّ تراها منتظمةً باحسن هندام على رفوف تتصاعد كالهرم فتخالها العين كطاقة واحدة من الزهور فتُعجب بجمالها

والحديقة كما أعلمنا فسيحة تشغل قسماً منها ٤٥ نوعاً من الاوكالبتوس كلّها نامية بسرعة غريبة ومعظم تلك الاصناف في شمالي الحديقة فمنها ما بلغ طولهُ ٢٠ الى ٢٥ متراً واغصانها تظلل ما حولها بظلّ وارف وهي تتدلَّى باوراقها المستطيلة وعند ملتصق الاوراق تتفتَّح زهرتها الشبيهة بالكتَّة وتكون ازهارها امَّا مفردة متفرّقة واما مجموعة متضامَّة . ولاوراقها هيئات متنوعة على حسب انواعها مع بعض الخواصّ الجنسيَّة وهي في الاشجار الكبيرة متناوبة جاسية جافية خضراء الى الزرقة وعلى وجهها حبوب تحتوي على زيت طيَّار يدعى اوكالبتول (eucalyptol) وهو ذو رائحة عبقة كالكافور ينسبون اليهِ خاصَّة الاوكالبتوس في تطهير الاماكن من الجراثيم الوبيئة . ويعاونهُ ايضاً هذه الخاصَّة بكون الاوكالبتوس ينمو سريعاً فيحتاج لنموهِ الى ماء وافر فيمتصّ مياه المستنقعات التي حولهُ وبذلك تنجو الامكنة المجاورة من الميكروبات المعدية والحشيَّات التي تتوفَّر في تلك المستنقعات . وروح الاوكالبتول السابق ذكرهُ ينفع في الزكام الشعبيّ وفي امراض المسالك البوليَّة . وما

لا ينكر انَّ هذه اشجار الاوكالبتوس تكسو حديقة المكتب الطبيّ ثوباً من البهاء وتنطق بلسان حالها عن نموّ تلك الحديقة وغناها مع تمثيلها لقوّة الطبيعة

سرّح الآن بنظرك الى ما تحتويهِ تلك الحديقة من ضروب النخل فانَّ اصنافهُ لا تقلّ عن ٤٥ نوعاً وهذه الانواع قائمة على ساقها في كلّ جهات الحديقة مباشرةً بما هو منها منتصبٌ كالحرس عند المدخل . فالعين لا تكلّ من الشخوص الى اشجارها المزدانة بجريدها البديع وسَعَفها المهيب الواقي بظلّهِ انحاء البستان والصافق باوراقهِ عند هبوب النسيم كما تخفق الرايات في الفضاء ويروق للبصر زهرهـا الناعم الذي يتفتّح مزدهياً على علوّ بعض الاقدام

ومن المعلوم انَّ النخل من اشجار المناطق الحارّة فهي تزدان بهِ كما تزدان المناطق الباردة بشجر الشربين والارز وكما تزدهي الاقاليم المعتدلة بشجر السنديان والزيتون والكرمة . ومن نواميس الكون انَّ كلّ غريب اذا تناءى عن وطنهِ ذلَّ فالنخل وهو في بلادنا غريب التربة لا يبلغ من الطول مـا يصيبهُ في موطنهِ حيث يسمق فيتجاوز احياناً مئتي قدم وهو لا يكاد يبلغ المئة في سواحلنا وعلى قدر ابتعادهِ من المنطقة الحـارّة يضعف ويزيد هزالهُ وهو على عكس ذلك اذا قرب من خطّ الاستواء . فيُرى في الهند مثلاً عالي الراس ثابت القدم تعصف فيهِ العواصف وتسـاورهُ اعاصير البحور الهنديّة دون ان تزحزحهُ . ولقد حدث منـذ بضع سنوات ان انواء البحر غمرت بعض الجزائر الواقعة قريباً من نهر الكنج فاودت بحيـاة مئتي الف من سكّانها ولم يكن لينجو منهم غير الذين ساعدهم حسن بختهم فتمكّنوا من التوقّل الى رؤوس النخل فكان اولئك البائسون يتدلّون عـلى اغصانها كأنّهم العناكيل تحمل بشراً لا تمرّا والماء من دونهم تتلاطم امواجه وتعوم فوقهُ جثث الغرقى

ولعرض البلاد فعلٌ في جودة النخل كما لطولها بـل تأثير العرض فيها اكثر من الطول لما يجد النخل في عرض بعض البلدان من الحرارة والرطوبة معاً لانَّ هذا النوع يحبّ ان تغوص اصولهُ في الماء وتسمق فروعهُ في السماء وهو الى الرطوبة اشدّ حاجةً منهُ الى الحرارة ولذلك ترى انواعهُ اوفر في عروض البلاد وازكى تمراً . ومن اوفق البلاد لنموّه سواحل البحر والجزُر ودليلهُ نموّ النخل في حديقة المكتب الطبيّ الفرنسويّ فانَّ كثيراً من انواع النخل المنقولة من الاقاليم الحارّة او البلاد

المعتدلة الهواء تسمق حتى يكاد بعضها يجاري نخل مصر وتأتي بثمار جنيّة غاية في اللذّة . وخلاصة القول انّ ضروب النخل في هذه الحديقة تُعَدُّ كملوك اشجارها وجبابرة نباتها فيُقضَى على الاوكاليتوس نفسهِ ان يقرّ بالسبق لوصيفهِ النخل

ومن الاشكال التي يستنبتها اصحاب الحديقة الفصيلةُ التينيّة (ficus) وهي ستّة انواع اخصُّها التين العباديّ (ficus religiosa) المعروف ايضاً بالتين الهنديّ الجبّاريّ (ficus gigantesque des Indes) لهُ خاصّتان يمتاز بهما : احداهما انّ بعض غيدانهِ تتلوّى فترتكز في التراب وتصبح كدعائم تستند اليها الاغصان الافقيّة الضخمة ومع الزمان ترى جذور هذه الشجرة كالسواري البديعة المقنطرة . والثانية انّ منها يُستخرج صمغ اللكّ وذلك بفعل حشرة كالصرصور يدعونها حشرة اللكّ (coccus lacca) فهي تُسيل ذاك الصمغ بوخزتها واذا جمد جمعوهُ واتّخذوهُ في الصناعة للاصباغ ولشمع اللكّ

ومن الفصيلة التينيّة المذكورة التين اللزج (ficus elactica) الذي من عصيرهِ يستخرج اهل الهند معظم المطّاط اي الكاوتشوك الشائع استعمالهُ في عهدنا . ومنها الاصناف المدعوّة في لسان العلم باسم پسيديوم (psidium) وفي لسان العموم باسم كوياف (goyaviers) ولاشجارها ثمرٌ لذيذ يبلغ في حديقتنا نضوجاً تامّاً

ومن الفصيلة الآسية (myrtacées) التي زكت انواعها واتت بثمارها الطيّبة في حديقتنا الطيّبة نوع الجمبوز (jambosa vulgaris) ونوع الميلالوكا (melaleuca) . فالجمبوز هنديّ الاصل لهُ ثمر في كبر الزيتونة يحمرُّ بعد خضرتهِ ثمّ يسودّ لدى نضجهِ تُستخرَج منهُ مشروبات مبرّدة . ومثلهُ الميلالوكا

ومن الاشجار التي استوطنت الحديقة شجيرة تُدعى بشاي الحبش (catha edulis) اصلها من البلاد الحارّة في آسية وافريقية . والعرب يُعنَون بزراعتها وهم يأكلون اوراقها دون انام ويَنسبون الى اكلها منافع جمّة ضدّ الطاعون وامراض اخرى

وللفصائل الصنوبريّة (conifères) في الحديقة غابةٌ صغيرة موقعها جنوبيّ غربي البستان وهيئة هذه الاشجار كما هو معلوم تخالف كثيراً ما سبق لنا وصفهُ فانّ خضرة اغصانها القاتمة وانتصاب سوقها وهامتها المخروطة الشكل تجعلها مهيبةً في

عين ناظرها وفي هذه الغابة ١٨ صنفاً مختلفاً والغالب عليها الصنوبر والسرو وبينها جنسان من الأرز اعظمها شأناً ارز لبنان المعروف بعظمته وفخامته وصلابة عوده وقد بلغ شكالهُ في الحديقة متراً ونصف واذا ما سمق بلغ الاربعين متراً طولاً وانبسطت اغصانهُ وتمدَّدت اوراقه وظلَّلت فسحةً واسعة من الارض . واذا تأصلت جذورهُ في الارض تشبَّثت بها واستمسكت . وللارز اللبنانيّ هيأة فخمة تأخذ بمجامع القلب وجلال يدهش النظر ورائحة طيبة تعطّر النسيم وهو يزهر في ابان الربيع ولهُ ثمر شبيه بالصنوبر . ويضرب المثل في صبرهِ على الزمان وهو لا يزال في نموّ واعتلاء وخشبهُ لا يعمل فيهِ الفساد (راجع مقالة في الارز في المشرق ١ : ٢٢٧)

ولو اردنا ان نستقري ما في هذه الحديقة من الاشجار والنبات لطال بنا الكلام فانَّ ما نُقل من البلاد القريبة اليها واصبح اليوم متوطّناً فيها يبلغ ٣٠٠ نوع بحيث يجوز القول انَّها في قطرنا الشامي لا نظير لها يجاريها

فلا عجب انَّ من يزورها ويتأمَّل خواصَّها يخرج ولسانهُ ينطق بالشكر لمن تولَّى تجهيزها وافرغ ما لديهِ من المجهود في حفظها وتنسيتها وتنسيق انواعها نريد بهِ حضرة الاب لويس بولوموا (R. P. L. Bouloumoy) الذي منذ عشرين سنةً لم يأخذهُ ملال في العناية بها ليلاً مع نهار

ونحن تلامذتهُ نعدّ نفوسنا سعداء اذ يمكننا ان ندرس خواصّ هذه المواليد الطبيعيَّة تحت نظارتهِ فانَّها لعمري آنات لذيذة نقضيها بمعيَّتهِ بين هذه الاغراس المختلفة نتتبع ميزاتها فرداً فرداً ونستنشق روائحها ونجني بزورها واثمارها

وايمُ الحقّ انني لا أنس ما انسَ تلك الساعة التي دخلت فيها لاوَّل مرَّة هذه الحديقة بصفة احد تلامذتها وكساعد لحضرة ناظرها فذلك ما قرَّب الينا معرفة هذه الكنوز الطبيعيَّة وقد رأينا تجهيز المحفظة وعاينَّا اطوار حياتها منذ سنتين فرأيناها قد بلغت بهيَّة استاذنا ما هي عليهِ اليوم من المحاسن . وكم راقنا في التجوّل حول بيروت في رُباها وبطحائها لنجمع في كلّ فصل من السنة ما خُصَّ بهِ من النبات والازهار . وقد بلغ بنا السرور مبلغهُ اذ رأيناهُ قد شمَّر ساعد الجد لتأليف كتابهِ البديع في النبات السوريّ وقد طبع قسماً منهُ اي صور ذاك النبات بجاء مجموعاً شائقاً بل طرفة من طُرف الصناعة جازاهُ الله خيراً وألهمنا الاقتداء بهمَّتهِ

حديقة المكتب العلمي الفرنسي مع قسم من حضنته